١٤

الدور الحضاري للمهالبة في بـــلاد المغـــرب

د. ناصر بن علي الندابي
خبير تربوي بوزارة التربية والتعليم
dr.alnadabi@gmail.com

الملخص:

تهدف الدراسة إلى تتبع الدور الحضاري الذي قام به آل المهلب في الشمال الإفريقي عندما كانوا ولاةً للدولة العباسية في ذلك الجزء من العالم الإسلامي. وتعتمد الدراسة على الاستقراء بمنهج تحليلي مقارن؛ لتحقيق أهدافها البحثية. وقد توصلت الدراسة إلى أن تتابع هؤلاء الولاة على بلاد المغرب واحدًا تلو الآخر، دليل على القدرة الإدارية والحس السياسي لديهم، الذي جعل من خلفاء الدولة العباسية ينيطون إليهم بالولاية؛ وبذلك أصبحت تلك الحقبة الزمنية مرتعًا خصبًا لأقلام الباحثين للتنقيب في صفحات التاريخ؛ بحثًا عن العلاقة التاريخية بين عمان وبلاد المغرب.

الكلمات مفتاحية: المهالبة. بلاد المغرب. الدور الحضاري. الولاة. الخلفاء

المقدمة:

لقد أسهمت عمان بعدد من الشخصيات الفذة التي كان لها قدم السبق واليد الطولى في الحضارة الإسلامية وتاريخها المجيد، سواء أكانوا في عمان أم خارجها. ومن هؤلاء القادة البارزين في التاريخ الإسلامي، المهلب بن أبي صفرة الأزدي العماني. إن المهلب بن أبي صفرة قد طبّقت سمعته وشهرته أصقاع المعمورة، وغدت شجاعته وقيادته للجيوش مضرب المثل، وانسحبت هذه الصفة على كل من ينتمي إلى هذا البيت، فاستعان به الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ثم عبدالله بن الزبير، وفي الأخير أوكل إليه بنو أمية مهمة قتال الخوارج الأزارقة، ثم جعلوه واليًا وقائدًا في بعض ولاياتهم، كما استعملوا أبناءه من بعده لذات المهام، ومن أشهرهم يزيد بن المهلب وزياد بن المهلب وغيرهم. وبلغت سمعة هذا البيت وشهامته مسامع بني العباس، فاستعانوا بهم أيضًا، ومن بين الولايات التي ولّوهم عليها ولاية إفريقية.

تركز هذه الدارسة على الولاة المهالبة الذين ظلّوا ردحًا من الزمن يحكمون بلاد المغرب، وتسلط الضوء على الجانب الحضاري الذي قاموا به حين قدموا إليها ولاة من الدولة العباسية، وتركز على الآثار الاجتماعية والاقتصادية التي تركوها في تلك البلاد إبّان ولايتهم لها، وتتعرض للدور الريادي الذي قاموا به من أجل توطيد بلاد المغرب، وإبقائها جزءًا لا يتجزأ من جسم الدولة العباسية. وتجمع الدراسة بين الاستقراء، والمنهج التحليلي، والمنهج المقارن.

وصول آل المهلب إلى المغرب العربي:

فتح المسلمون بلاد مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على يد القائد عمرو ابن العاص، ثم توجهوا غربًا نحو إفريقية حتى بلغوا مدينة برقة، وعندما اقتربوا من إفريقية، لم يبقَ أمامهم سوى مسيرة تسعة أيام، استأذنوا أمير المؤمنين لفتحها، إلا أنه رفض مواصلة الفتح والتوغل في بلاد المغرب؛ خشية منه على المسلمين من أدغال إفريقية [1]. ورد على عمرو بن العاص برسالة جوابية جاء

١) عبد الغني زهرة: تاريخ الفتح الإسلامي والدول الإسلامية في بلاد المغرب، ط١، مكتبة الرشد، الرياض المملكة العربية السعودية، سنة: ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م ص٣١-ص٣٦.

فيها: "إنها ليست بإفريقية، ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت"[١]. ولقد صدق حدس أمير المؤمنين؛ إذ لاقى المسلمون معاناة شديدة لفتح إفريقيا والتوغل فيها بعد وفاته بأعوام كثيرة.

أذِن الخليفة الثالث عثمان بن عفان، للمسلمين بمواصلة فتح إفريقيا، ثم توقفت الفتوحات في عهد الإمام علي بن أبي طالب؛ نظرًا لما مر بالعالم الإسلامي من فتن واختلافات، ثم واصلت الدولة الأموية هذا المشروع، فتمكنت من فتح سائر بلاد المغرب، ودخل أهلها في الإسلام، وهم من كانوا عونًا للفاتحين القادمين من المشرق، ومن أبرز القادة الفاتحين موسى بن نصير وطارق ابن زياد.

ضم عصر الدولة الأموية عددًا كبيرًا من الولاة، تتابعوا على ولاية بلاد المغرب بعد الوالي موسى بن نصير، من أبرزهم: محمد بن يزيد القرشي (٩٧هـ / ٧١٥م - ١٠٠هـ / ٧١٨م)[٢]، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر (١٠٠هـ / ٧١٨م - ١٠٢هـ / ٧٢٠م)[٣]، وبشر بن صفوان الكلبي (١٠٢هـ / ٧٢١م - ١١٥هـ - ٧٣٣م[٤]. وسار الأمر على هذا المنوال إلى أن جاء عهد عبد الرحمن ابن حبيب

---

١) "وردت هذه العبارة بصيغ عدة، فوردت متناثرة" ينظر مثلا: أحمد اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ط١، ج٢، ص١٠٨. "ولكن عند ابن الحكم أوردها كاملة بهذه الصورة" ينظر: ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، طبعة مدينة ليدن، سنة: ١٩٢٠م، ص١٧٣، واعتمدتها المراجع من بعده. انظر: العيدروس: محمد، المغرب العربي في العصر الإسلامي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، سنة: ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م. ط١، ص٢٦. حسونة، محمد: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، الفجالة، القاهرة، دار نهضة مصر، د.ت، ص٥٦.

٢) "عين واليًا من سليمان بن عبد الملك" انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، م، س، ص٢١٣، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٢٠٦، الرقيق القيرواني: أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: عبد الله العلي الزيدان، وعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، سنة: ١٩٩٠م، ص٥٨، ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، سنة: ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ج٤، ص٣٠٠، ابن عذاري المراكشي: البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج . س . كولان و إ . ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٣، سنة: ١٩٨٣م ص٤٧.

٣) "تم تعينه واليًا على المغرب من عمر بن عبد العزيز وكان حسن السيرة" انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، م. س، ص٢١٣، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص٦٢، ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، م. س، ص٢٠٤ وما بعدها، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٤، ص٣٠٠- ص٣٠١، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ص٤٨.

٤) "استمر واليًا على المغرب في عهدي يزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك" انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، م. س، ص٢١٥، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٢١٩، ص٢٢٣، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص٦٦، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ص٤٩.

الفهري (١٢٦هـ / ٧٤٤م - ١٣٧هـ / ٧٥٤م) الذي انتزع الولاية بالقوة، فاستمر في ولايته حتى قيام الدولة العباسية، التي أقرته على ولايته وأضفت عليه الصبغة الشرعية [١]. وبعد صراع مرير داخل العائلة الفهرية، انتهى الأمر ببسط قبيلة ورافجومة البربرية نفوذها على القيروان؛ بعدها أرسل أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث واليًا على بلاد المغرب؛ لتوطيد الأمن بها، فتمكن من ذلك لفترة بسيطة إلى أن حدثت اضطرابات كثيرة تمخضت عن إرسال وال على مستوى هذه الأحداث المتأزمة، ألا وهو أبو جعفر عمر بن حفص المهلبي[٢]. ومن هنا بدأت علاقة آل المهلب بالمغرب العربي. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هؤلاء الولاة الذين عُينوا على المغرب لم يكونوا من أبناء المهلب مباشرة، بل كان بعضهم من أبناء إخوته، لكن بسبب شهرته نسبوا إليه[٣]، وهؤلاء الولاة هم:

عمر بن حفص بن عثمان الأزدي (١٥١هـ / ٧٦٨م - ١٥٤هـ / ٧٧١م)

هو أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي،[٤] يلقب بـ "هزار مرد" وهي كلمة فارسية تعني ألف رجل[٥]، وهذا اللقب يدل على قوة شخصية هذا الوالي وشجاعته؛ إذ يعدُّ عن ألف رجل، ويعدُّ أول من

١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، م. س، ص٢٢٣ -ص٢٢٤، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص٩٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٤، ص٥٠١، ابن عذاري: البيان المغرب...، ص٦٤، عبد الغني زهرة :تاريخ الفتح الإسلامي والدول الإسلامية في بلاد المغرب .. م.س، ص١٠٣ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الإسلام إلى العصر الحاضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المملكة المغربية، د.ت .، ص٨٣.

٢) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٠٣ وما بعدها، حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، سنة: ١٩٨٠م، ط١، ص٧١، عبد الغني زهرة: تاريخ الفتح الإسلامي...، م. س، ص١٠٣.

٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٥، عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال أفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تحقيق: أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي ،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ط١، ص١٧٩.

٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٢٦١، الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد: تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج٤، ص٤٩٨، السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد ابن منصور، الأنساب، وضع حواشيه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، سنة: ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ج٣، ص٤٨٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٥، البطّاشي: تاريخ المهلب القائد... م. س، ص١٥٢، "بينما ذكر ابن حزم الأندلسي وابن عذاري المراكشي أن اسمه عمرو وليس عمر" انظر: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، م. س، ص ٣٦٨، ابن عذاري، البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٧٥.

٥) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، م. س، ص٣٦٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٥، عبد الغني زهرة: تاريخ الفتح الإسلامي...، م. س، ص١٠٥، الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي، دار الفتح ودار التراث العربي، ليبيا، ط٣، د.ت، ص١٨٥.

وُلِّيَ من آل المهلب على بلاد المغرب، فقد اختاره أبو جعفر المنصور ليوطد الأمن فيها بعد كثرة النزاعات والثورات التي ظهرت بها، وقدم إليها في عام ١٥١هـ / ٧٦٨م، واتخذ من القيروان مركزًا لولايته[١] .

استقرت الأمور في القيروان بمقدم أبي جعفر في السنوات الثلاث الأولى من عهده، ولكن ما لبثت أن ثار عليه الإباضية بزعامة عبد الرحمن بن رستم، والصفرية بزعامة أبي قرة في إقليم الزاب؛ وذلك نظرًا لوصول خبر رغبة أبي جعفر في تحصين مدينة طُبنة[٢]، الأمر الذي سيشكل خطرًا على أمن واستقرار الإباضية وخشيتهم من هذا المشروع المفاجئ وما قد يعقبه من رغبة في التوسع، فتوجهوا إلى هذه المدينة وحاصروه فيها؛ إلا أنه تمكن في نهاية المطاف من تفرقة هذه الجموع وفك الحصار بالحيل والخديعة، فانطلت هذه الحيلة على الصفرية فانصرفوا، ولم يبقَ في الساحة سوى الإباضية، فظل يقاتلهم حتى تمكن من هزيمتهم،[٣] ثم عاد أدراجه نحو القيروان، وما أن ولج المدينة حتى فوجئ بحصار أبي حاتم يعقوب بن لبيب الإباضي لها، وحين بلغ نبأ هذه الثورة إلى العاصمة بغداد، أرسل الخليفة أبو جعفر المنصور المدد إليه لفك الحصار بقيادة يزيد بن حاتم - ابن عم أبي جعفر-،[٤] إلا أن أبا جعفر عزَّ عليه أن يقال أنقذه ابن عمه من الحصار، فخرج إلى المحاصرين بعد أن قال لأعوانه مقولته المشهورة "لا خير في الحياة بعد أن يقال: يزيد أخرجه من الحصار، إنما هي رقدة وأبعث إلى الحساب"[٥]، فقاتل حتى قتل وكان ذلك في شهر ذي الحجة من عام ١٥٤هـ / ٧٧١م[٦].

---

١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٥، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٧٥، الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي...، م. س، ص١٨٥.

٢) طبنة: بضم أوله ونون مفتوحة وهي بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب، فتحها موسى بن نصير فبلغ سبيلها عشرين ألفا وهرب كسيلة منها، وسورها مبني بالطوب وليس بين القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها. استجدها عمر ابن حفص هزار مرد المهلبي في حدود سنة ٤٥٤هـ" انظر: الحموي، معجم البلدان، م. س، ج٤، ص٢١.

٣) الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٠٥، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٦، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٧٥-ص٧٦، عبد الغني زهرة: تاريخ الفتح الإسلامي...، م. س، ص١٠٤، الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي...، م. س، ص١٨٥.

٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٧، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٧٥-ص٧٦، عبد الغني زهرة: تاريخ الفتح الإسلامي...، م. س، ص١٠٥، الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي...، م. س، ص١٨٧.

٥) ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٧٦.

٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٧، عبد الغني زهرة: تاريخ الفتح الإسلامي...، م. س، ص١٠٥،=

وعلى الرغم من أن ولاية أبي جعفر كانت قصيرة زمنيًّا، إلا أن من المسلّم به أن يكون هناك العديد من رجالات الأزد من آل المهلب وذراريهم قد صحبت هذا الوالي حين مقدمه من أرض المشرق متجها بكتاب الخليفة واليًا على بلاد المغرب، لتحط رحالها فيها وتكون عونًا لهذا الوالي المنتمي إليها؛ الأمر الذي يجعل اندماج المهالبة بالمغاربة، وتأثيرهم في مفردات الحياة الاجتماعية ممكنًا وكبيرًا.

يزيد بن حاتم الأزدي (١٥٤هـ / ٧٧١م - ١٧٠هـ / ٧٨٦م):

وهو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، ويكنى بأبي خالد،[١] عرف عنه أنه كان شجاعًا مقدامًا شبيهًا بجده المهلب بن أبي صفرة، وقد أنيط به ولاية مصر من الخليفة أبي جعفر المنصور[٢]، وعندما بلغ هذا الأخير حصار الإباضية واليه أبو جعفر السالف الذكر أمره بالخروج من مصر في عام ١٥٤هـ / ٧٧١م، والتوجه نحو إفريقية لفك الحصار الذي ضُرب على مدينة القيروان، وأمده بجيش كبير من أهل الكوفة والبصرة وخراسان والشام، إلا أن هذه الجموع وصلت بعد مقتل أبي جعفر ودخول أبي حاتم الإباضي إلى المدينة بعد أن أبرم جميل بن صخر -أخو أبي جعفر لأمه- الصلح معه؛ مما تمخض عنه خروج العسكر من القيروان بسلاحهم[٣].

خرج يزيد بن حاتم من مصر بكتاب الولاية إلى إفريقية، وعندما علم أبو حاتم الإباضي بتوجهه إليهم خرج ببعض جنده -بعد أن تفرق الكثير من أعوانه عنه واختلفوا فيما بينهم- فدخل في معركة فاصلة مع يزيد بن حاتم قرب مدينة طرابلس انتهت بمقتله في ربيع الأول عام ١٥٥هـ / مارس ٧٧٢م، تمكن بعدها

=الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي...، م. س، ص١٨٧.

١) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١١١-ص١١٢، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، م.س، ص٣٧٠، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٧، ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، بدون طبعة، د.ت، ج٢، ص١.

٢) "وقد تولى قبلها ولايات عدة منها أرمينية والسند وأذربيجان" انظر: الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١١٣، ص١٢٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٤٦، ص١٧٥، ص١٨٤، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨١.

٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٢٧٠، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٢٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٧.

الوالي يزيد بن حاتم من التوجه نحو القيروان ودخولها، وما أن وطئت قدماه أرض القيروان حتى عمل على القضاء على كل الثورات دون هوادة، فاستقامت له الأمور وساد الأمن والسلام في أرجاء إفريقية[١].

ونظرًا لما ساد المنطقة من الأمن والاستقرار، فقد سنحت الفرصة ليزيد ابن حاتم للقيام بالعديد من المشاريع العمرانية والاقتصادية، والنهوض بالجانبين العلمي والثقافي، وأولى اهتمامًا كبيرًا بالقيروان فرتّب سوقها وجدّد مسجدها الجامع[٢] -وهو ما يفصّله العنصر الآتي من هذه الورقة البحثية-.

واستمر على هذا النحو من التطوير والاهتمام بمدينة القيروان وما حولها حتى وافته المنية عام ١٧٠هـ / ٧٨٦م[٣]. ونظيرًا لما عرف عنه من الجود والكرم فقد حظي بمدح الشعراء له. ومن بين الشعراء الذين قالوا في حقه مدحًا، الشاعر ربيعة بن ثابت الرقي؛ إذ قال[٤]:

لشتان ما بين اليزيدين في النّدى ... يزيد سُليم والأغرِّ ابن حاتم

فلا يحسب التَّمْتَام أني هجوته ... ولكنني فضّلت أهل المكارم

فهمُّ الفتى الأزدي إتلاف ماله ... وهمُّ الفتى القيسي جمع الدراهم

والجدير بالذكر أن طول مدة ولاية يزيد بن حاتم على بلاد المغرب ست عشرة سنة، واستقرار الأمن والرخاء الاقتصادي والعمراني الذي ساد المنطقة في عهده، كان من أهم الأسباب والمحفزات التي أهلت المنطقة لاستقطاب الناس بشتى طبقاتهم -التجار والعلماء والشعراء- لاستيطانها والاستقرار فيها والتنعّم بالهدوء والطمأنينة في ظل وجود إدارة قوية ووالٍ كريم محب للعلم وطلابه، كل

١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٢٧٠، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٢٣-ص١٢٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٧، مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، م. س، ص٧٢، عبد الغني زهرة: تاريخ الفتح الإسلامي...، م. س، ص١٠٥.

٢) "بينما يرى الرقيق القيرواني أن يزيد بن حاتم هو من بناه ثم جدده" انظر: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٢٦.

٣) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٢٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٨، "بينما يرى ابن عذاري أن وفاته كانت في عام ١٧١هـ" انظر: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨١.

٤) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١١٥ ، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة...، م. س، ج٢، ص١.

ذلك يعدُّ دليلا على إمكانية نزوح العديد من القبائل الأزدية من المهالبة بصورة خاصة، وباقي القبائل على وجه العموم من المشرق العربي وإقامتها في بلاد المغرب بشتى أقاليمه ومدنه، فقد كانت فرصة سانحة لمحبي السلطة من المهالبة لإشباع نهمهم وبلوغ مأربهم في السلطة والنفوذ، والتطلع إلى نيل حظوة لدى واليها الذي ينتمي إليهم، كما أنها تعدُّ في الوقت ذاته بابًا فتح على مصراعيه للتجار الأزديين الذين وجدوا فيها سوقًا رحبًا لبضاعتهم، وأصبح مهوى لكل الفئات الأخرى من الأزد التي ترنو إلى العيش تحت سيادة شخص من قبيلتها في زمن بلغ التعصب القبلي أوجه.

روح بن حاتم الأزدي (١٧٠هـ / ٧٨٦م - ١٧٤هـ / ٧٩١م):

هو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، يكنى بأبي خالد، وُلِيَ لخمسة خلفاء من بني العباس: السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيدَ، حتى قيل إنه لم يتفق هذا لأحد غيره سوى لأبي موسى الأشعري الذي كان عاملا للمصطفى ﷺ على اليمن، ثم لخلفائه من بعده، فقد تولى روح بن حاتم ولاية البصرة وعين واليًا على الكوفة، كما تولى ولاية السند وطبرستان وفلسطين وآخرها بلاد المغرب[١].

ومن الأحداث التي سبقت مقدم روح بن حاتم، استخلاف الوالي يزيد بن حاتم لابنه داود إبّان مرضه وقبيل وفاته[٢] على إفريقية حتى يُعَيَّنَ واليًا آخرَ من الخليفة، فاستمر في منصبه تسعة أشهر ونصفا، خاض فيها العديد من المعارك مع البربر[٣].

١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٢٧٩، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٣٥، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٤، البطّاشي: تاريخ المهلب القائد...، م. س، ص١٦٠.

٢) "يظهر من رواية اليعقوبي أن الخليفة كان موافقًا لاستخلاف يزيد لابنه داود، وإن الخليفة هارون عزله؛ لأن الثوار هزموه، وأنه كان سيء المعاملة لأهل إفريقية" انظر: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج ٢، ص٢٨٨، "ويعد داود هذا من الولاة المشهورين في عصر العباسيين، فقد تولى ولايات كثيرة منها مصر والسند، ومدحه الكثير من الشعراء وتوفي وهو على ولاية السند" انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٣٠٨، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٣٣.

٣) "عند الرقيق أنه مكث في منصبه خلفا لأبيه مدة سبعة أشهر ونصف، بينما عند المؤرخين الآخرين تسعة أشهر ونصف، وهي الأقرب إلى الصحة ويظهر أن ما كُتِبَ في كتاب الرقيق لا يعدو أن يكون خطأ مطبعيًّا كما أشار إلى ذلك محقق الكتاب، أما بقية المصادر فتتفق على تسعة أشهرَ" انظر: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٣٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص٢٧٨، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٢، الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي...، م. س، ص١٩٣.

وقد كان داود هذا مثالاً بارزًا على متانة العلاقة بين المهالبة ووطنهم الأم عُمان، وتجلى ذلكم الأمر عندما بعث داود برسالة إلى أهل عُمان يخبرهم بمسير عيسى بن جعفر إليهم بأمر من هارون الرشيد للسيطرة على عُمان وإخراجها من قبضتهم[١].

أمسك داود بن يزيد زمام الأمور في ولاية إفريقية، حتى جاء كتاب الولاية من بغداد بتعيين عمه روح بن حاتم واليًا على إفريقية من الخليفة هارون الرشيد، فقدمها في رجب من عام ١٧٠هـ / ٧٨٦م ونزل بالقيروان[٢].

وإذا كان يزيد بن حاتم قد عُرف في المغرب بالكرم والشجاعة والإقدام، فقد كان روح بن حاتم ندًّا له بالمشرق حين كان واليًا على السند، قبل مقدمه إلى المغرب[٣]، رآه رجل يومًا واقفًا على باب الخليفة المنصور وقد طال وقوفه تحت الشمس فقال له: "لقد طال وقوفك في الشمس، فقال له: ليطول وقوفي في الظل"[٤]. واستقامت بمقدمه الأمور في بلاد المغرب، وصلحت له الدنيا ووادع عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية[٥]. وظل في ولاية إفريقية حتى وافته المنية في شهر رمضان من سنة ١٧٤هـ / ٧٩١م، وبذا تكون ولايته ثلاث سنين وبضعة أشهر[٦].

نصر بن حبيب الأزدي (١٧٤هـ / ٧٩١م - ١٧٧هـ / ٧٩٣م):

هو نصر بن حبيب الأزدي المهلبي، عيّنه الخليفة هارون الرشيد عاملاً على أرمينية فترة من الزمن ثم عزله[٧]، فتوجّه بعدها نحو مصر فكان على شرطة

---

١) "وقد كان ذلك في عهد الإمام الوارث بن كعب الخروصي. وقد تمكن العُمانيون من هزيمة عيسى بن جعفر وأسره ثم قتله" انظر: السالمي: نور الدين عبد الله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، مكتبة الاستقامة، سنة: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ج١، ص١١٦، البطّاشي: تاريخ المهلب القائد...، م. س، ص١١٦.

٢) الرقيق القيروني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٣٥، ص١٣٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م.س، ج٥، ص٢٧٨، ص٢٨٢، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٢، الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي...، م. س، ص١٩٣.

٣) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٣٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص٢٣١، البطّاشي: تاريخ المهلب القائد... م. س، ص١٦٢.

٤) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٣٧، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٤.

٥) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٤١.

٦) نفسه: ص١٤٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص٢٨٧، ابن عذاري: البيان المغرب...، م.س، ج١، ص٨٥.

٧) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٣٠٠.

يزيد بن حاتم في مصر وإفريقية، وقد كان محمود السيرة، وعندما توفي روح ابن حاتم بايع الناس ابنه قبيصة؛ إلا أن هارون الرشيد كان قد كتب بولاية إفريقية لنصر بن حبيب إبّان مرض روح بن حاتم وأخفى نصر ذلك الأمر عن الخاصة والعامة، ثم أظهر كتاب الخليفة بعد أن تأكد خبر وفاة الوالي روح بن حاتم[١]، وقد كان نصر حسن السيرة في ولايته واشتهر بالعدل[٢].

إن هذه الأخلاق الرفيعة والمميزة التي كان يتعامل بها هذا الوالي وبعض الولاة الآخرين من بني المهلب مع سكان بلاد المغرب، من شأنها أن ترسخ جذور العلاقة بين المهالبة وسكان بلاد المغرب، فهي تعطي صورة ناصعة للأخلاق الحسنة التي كان عليها أهل عُمان على وجه العموم، والمهالبة على وجه الخصوص، التي مثلها هؤلاء الولاة أحسن تمثيل وكانوا قدوة فيها، فأحبهم سكان بلاد المغرب، وانقادوا لأوامرهم؛ إذ أن قلوب البشر جُبلت على حب من أحسن إليها. واستمر نصرا بن حبيب في ولايته سنتين وبضعة أشهر إلى أن تم عزله عام ١٧٧هـ / ٧٩٣م، وأمسك بزمام الأمور بعد عزله المهلب بن يزيد إلى حين مقدم الوالي الجديد من هارون الرشيد [٣].

الفضل بن روح بن حاتم المهلبي (١٧٧هـ / ٧٩٣م - ١٧٨هـ / ٧٩٤م)

هو الفضل بن روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب ابن أخ يزيد بن حاتم، توجه إلى الخليفة هارون الرشيد بعد وفاة أبيه -روح بن حاتم- خاطبًا الولاية على إفريقية بدلاً من نصر بن حبيب، فوافق الخليفة إكرامًا وإجلالاً لأبيه، ولم يمهل الخليفة الوالي نصر بن حبيب حتى مقدم الفضل بن روح؛ إنما عزله من منصبه وأمر بتسليم زمام الأمور إلى المهلب بن يزيد إلى حين قدوم الفضل إلى بلاد المغرب، فقدمها في عام ١٧٧هـ / ٧٩٣م[٤].

---

١) ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٥.

٢) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٤٧، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٥.

٣) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٤٩، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٥-ص٨٦.

٤) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٤٩، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص٢٩٧، البطّاشي: تاريخ المهلب القائد...، م. س، ص١٦٢.

استبشرت إفريقية بمقدم الفضل بن روح واستقبل استقبالاً حافلاً [١]، لكن هذا الوالي خيّب آمال أهالي المنطقة، فقد عين على تونس ابن أخيه المغيرة ابن بشر بن روح، الذي أساء لأهلها فشكوه للفضل -عمه- إلا أنه لم يعرهم اهتمامًا وغض الطرف عما يفعل ابن أخيه؛ فثار الناس ضده، وبايعوا بدلاً منه عبد الله ابن الجارود الذي قام بمعية أتباعه بمحاصرة المغيرة بن بشر حتى تمكنوا من إخراجه من تونس، فبعث لهم الفضل عاملاً آخر، إلا أنهم قتلوه، ثم استعدوا لمجابهة الفضل نفسه، فدارت بين الطرفين حرب ضروس انتهت بمقتل الفضل بن روح، عام ١٧٨هـ / ٧٩٤م[٢].

وبمقتل الفضل بن روح المهلبي تنتهي فترة المهالبة في المغرب، التي استمرت قرابة سبعة وعشرين عامًا؛ إذ بدأت في أواخر أيام أبي جعفر المنصور وانتهت في أوائل أيام هارون الرشيد[٣]، وهي فترة جديرة بتجذر العلاقة بين المهالبة والسكان الأصليين لبلاد المغرب، بسبب إمكانية وفود آل المهلب إلى بلاد المغرب لإعانة الولاة في ولاياتهم.

ومما تقدم؛ يظهر أن الدولة العباسية كانت واثقة ومقتنعة بالسياسة التي كان ينهجها ولاتها المهالبة في بلاد المغرب، بل متيقنة من ولائهم لها، ويتضح هذا الأمر بصورة جلية في تتابع هؤلاء الولاة على بلاد المغرب الواحد تلو الآخر، دون أن يتخللهم أي والٍ خارج نطاق العائلة المهلبية طيلة سبعة وعشرين عامًا التي استمر فيها المهالبة يمسكون بزمام الولاية على بلاد المغرب. كما أنه من المنطقي أن تستمر بعض العائلات المهلبية مقيمة في بلاد المغرب بعد انقضاء مدة ولاية الولاة المهالبة، فلا يسوغ عقلاً أن يخرج كل المهالبة عن بكرة أبيهم من بلاد المغرب بعد انتهاء مدة ولايتهم.

---

١) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٤٩.

٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٢٨٨، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص١٥١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص٢٩٧، ٢٩٨، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٧- ص٨٨.

٣) ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٨.

الدور الحضاري للولاة المهالبة:

وبعد التطرق للفترة التاريخية التي حكم فيها المهالبة بلاد المغرب، وما حدث في عهدهم من صراعات ونهضة حضارية شملت معظم أجزاء بلاد المغرب، يأتي الدور لتتبع هذه النهضة الحضارية وتفاصيلها.

نظرًا لطول المدة التي قضاها المهالبة في هذه الولاية، التي استمرت قرابة سبعة وعشرين عاما[١]، فقد كانت مليئة بالإنجازات الحضارية. ومثّل الوالي عمر ابن حفص بن عثمان المهلبي الأزدي (ت: ١٥٤هـ / ٧٧١م) أول ولاة المهالبة على بلاد المغرب[٢]، ومن المحتمل أن يكون قد اصطحب معه عند مقدمه من المشرق عدداً من العلماء من بني جلدته؛ ليستنير بهم في إدارة شؤون الولاية، وليكونوا عونًا له في تثبيت أركان سلطته، وتعليم الناس أمور دينهم.

وقد برز بعد عمر بن حفص المهلبي، الوالي يزيد بن حاتم المهلبي (ت: ١٧٠هـ / ٧٨٦م)، الذي أولى اهتمامًا بالعلماء وطلاب العلم، وكان بلاطه "زاخرًا بالعلماء والأدباء كما هو شأن الولاة الآخرين، فاستقدم عددًا كبيرًا منهم"[٣]، كما ارتحل إليه آخرون؛ لينعموا بهذا الاهتمام من لدن هذا الوالي[٤]، ومن بين أولئك العلماء: العالمان العُمانيان إبراهيم بن قطن المهري، وأبو الوليد عبدالملك بن قطن[٥]؛ بل إن أحد أحفاد هذا الوالي كان من علماء اللغة والأدب، يُدعى محمد بن أحمد بن علي ابن إبراهيم بن يزيد بن حاتم المهلبي[٦]، ومن المنطقي أن تكون هناك لقاءات علمية بين هؤلاء العلماء وعلماء السكان الأصليين المغاربة في القيروان وما حولها من مدن.

---

١) ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٨.

٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٥، ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٧٥، الزاوي: تاريخ الفتح العربي...، م. س، ص١٨٥.

٣) حوالة: يوسف بن أحمد، الحياة العلمية في إفريقية، (المغرب الأدنى منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، ٩٠ / ٤٥٠هـ المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ط١، سنة: ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص١٠٨-ص١٠٩.

٤) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب...، م. س، ص١٢٦، حواله: الحياة العلمية في إفريقية...، م.س، ص١٠٨-ص١٠٩.

٥) محمد المنذري: علاقات عُمان الخارجية...، م. س، ص٣٤٣.

٦) رجب عبدالحليم: الإباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عُمان والبصرة، مكتبة الضامري، السيب، سلطنة عُمان، د.ت، ص٤٩.

لقد كان للهجرة المهلبية العُمانية المنظمة دور في تعميق العلاقة الاجتماعية بين آل المهلب وسكان بلاد المغرب؛ نظراً للدور الريادي الذي قاموا به في هذه المنطقة، فقد كان السبب الرئيس الذي جعل خلفاء بني العباس يرسلونهم إلى بلاد المغرب، رغبتهم في إرساء الأمن والاستقرار في البلاد[١]، ويصفهم أحد الباحثين بقوله: "وكان المهالبة في جملتهم أهل استقرار وخبرة بشؤون الإدارة" [٢].

هاجرت أعداد كبيرة من آل المهلب مع ولاتها إلى بلاد المغرب، فقد صحِب الوالي عمر بن حفص المهلبي (١٥١هـ / ٧٦٨م - ١٥٤هـ / ٧٧١م) خمسمائة فارس[٣]، وخرج عدد غفير مع الوالي يزيد بن حاتم المهلبي (١٥٤هـ / ٧٧١م - ١٧٠هـ / ٧٨٦م) بلغ ستين ألفا[٤]، ومن المعلوم أن هذه الجنود كانت تصحب أسرها معها، وتظل مع الوالي حتى تنتهي ولايته، أو قد تبقى حتى يعيّن والٍ آخر من العائلة نفسها، وبعضها الآخر يطيب له المقام فيقضي طول حياته في مهجره. إن هذه الأفواج الكبيرة من آل المهلب التي هاجرت، كانت قادرة على إحداث تغيير جذري في الحياة الاجتماعية في المناطق والمدن التي نزلتها، فالعادات والتقاليد والمبادئ والصفات التي كانت تدين بها كان لها الأثر الكبير في التأثير والامتزاج بينها وبين عادات وتقاليد سكان بلاد المغرب الأصليين.

ومن الصفات النبيلة التي اشتهر بها ولاة المهالبة، الكرم والجود والسخاء والشجاعة[٥]، وقد تجلّت هذه الصفات بصورة واضحة في شخص الوالي المهلبي يزيد بن حاتم المهلبي؛ إذ يصفه ابن عذاري بقوله: "هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، وحاله في كرمه، وجوده، وشجاعته، وبعد صيته، ونفاذ رأيه، وتقدمه،

١) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب...، م. س، ص١٠٣ وما بعدها، مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، م. س، ص٧١، عبد الغني زهرة: تاريخ الفتح الإسلامي...، م. س، ص١٠٣.

٢) مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، م. س، ص٧١.

٣) السلاوي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصر ومحمد الناصر، دار الكتاب، ج١، ص١٨٦.

٤) نفسه: ج١، ص١٨٨.

٥) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب...، م. س، ص١١٥، ابن الجوزي: أخبار الظراف والمتماجنين، تحقيق: بسام عبدالوهاب الجاني، دار ابن الحزم، بيروت، لبنان، سنة: ١٩٩٧م، ص٨٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة...، م. س، ج٢، ص١. السلاوي: الاستقصا...، م. س، ج١، ص١٨٩.

معروف غير منكر، وكان كثير الشبه بجده المهلب بن أبي صفرة في حروبه وكرمه، وكان له أولاد مذكورون بالشجاعة والإقدام"[1]، ولم يكن هو الوالي الوحيد من بني المهلب الذي يحمل هذه الصفات النبيلة [2]؛ بيد أن مدة ولايته التي بلغت ست عشرة سنة (١٥٤هـ / ٧٧١م - ١٧٠هـ / ٧٨٦م)، كانت جديرة باستقطاب أقلام المؤرخين، وذيوع صيته أرجاء المعمورة.

وقد اندمج هؤلاء الولاة مع السكان؛ إذ كان الناس في مدينة القيروان -التي كان ينزل بها ولاة بني المهلب- يشاركون الولاة في أفراحهم وأحزانهم، فقد توفي ابن الوالي المهلبي روح بن حاتم (١٧٠هـ / ٧٨٦م - ١٧٤هـ / ٧٩١م) فقدم الناس لتعزيته؛ إلا أنه من رباطة جأشه وصبره، وجدوه يبتسم فاستحوا من تعزيته، فأنشأ يقول:

وإنَّا لقوم ما تفيض دموعُنا على هالك منّا وإن قُصِمَ الظهرُ[3]

تمكن آل المهلب من الاندماج في المجتمع المغربي اندماجًا كسروا به حاجز الطبقية، واستطاعوا أن ينصهروا في المجتمع بصورة جعلت الناس تنظر إليهم على أنهم عائلة مغربية، فلم يتعالوا على الناس ولم يستعبدوهم.

وما أدل على ذلك من قول الشاعر الحماسي[4]:

نزلت على آل المهلـــب شـــاتيًا بعيدًا عن الأوطان في الزمن المحل

فما زال بي معروفهم واقتصارهم وبرّهُمُ حتى حسبتهـــم أهلـــي

ولم يتوقف الأمر عند مشاركة الولاة للسكان والاندماج في حياتهم اليومية فحسب؛ بل كان لهم أثر أكبر من ذلك، فقد سعوا إلى النهوض ببلاد المغرب،

---

١) البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨٧.

٢) فالوالي روح بن حاتم المهلبي كان من الكرماء الأجواد أيضا، انظر: الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب...، م. س، ص١٣٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص٢٣١، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، سنة: ١٩٠٠م، ط١، ج٢، ص٣٠٥، البطّاشي: تاريخ المهلب القائد ...، م. س، ص١٦٢.

٣) السلاوي: الاستقصاء...، م. س، ج١، ص١٨٩.

٤) ابن عذاري: البيان المغرب....، م. س، ج١، ص٨٤.

وتنظيم مدنها، والارتقاء بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها، ويشهد على ذلك ما قام به الوالي يزيد بن حاتم المهلبي في مدينة القيروان؛ إذ دعم النشاط الصناعي بصورة كبيرة، وشجع الصنّاع على مزاولة صناعاتهم وحرفهم، وتمثل ذلك الدعم والتشجيع في أمرين اثنين، الأول: جعل لكل صناعة مكاناً خاصاً بها؛ وذلك لتهيئة البيئة الملائمة لكل مهنة، والأمر الثاني: إنشاؤه لعدد من الأسواق؛ بهدف تحفيز أولئك الصنّاع على الاستمرار في صناعتهم، وتسهيل مهمة بيع إنتاجهم في مدينتهم، وكذلك لتسهيل حصول السكان الآخرين على ما يرغبون من السلع[١].

إن قيام الوالي المهلبي يزيد بن حاتم بإنشاء الأسواق، وتنظيمه لشؤون مدينة القيروان، جعل الكثير من التجار يتهافتون عليها؛ لبيع بضاعتهم وشراء إنتاج أولئك الصنّاع، وعندما اكتظت المدينة بالسكان؛ نظرًا لهذا الرقي والتطور الذي طالتها يد هذا الوالي، أصبح جامعها القديم غير قادر على استيعاب تلك الأعداد الكبيرة من المصلين، فأمر بتوسعة الجامع[٢]؛ لكي يتلاءم مع التطور الذي لحق بباقي مرافق المدينة.

واهتم هذا الوالي كذلك بالزراعة، وكان حريصاً على متابعة هذا النشاط بنفسه؛ إذ كان كثير التجوال بين الرياض التي تعج بها مدينة القيروان؛ فيأمر المزارعين بما يراه مناسباً وينهاهم عما يراه خطأ، كذلك لم يغفل جانب الرعي؛ إذ خصص للأغنام مكاناً مناسباً للرعي على مشارف المدينة[٣]، وبالمثل؛ فقد قام الوالي يزيد بن حاتم بتنظيم تونس على غرار ما قام به في مدينة القيروان[٤].

لم يكن انتهاء مدة ولاية ولاة المهالبة تعني نهاية الوجود المهلبي في بلاد المغرب؛

---

١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٢٧٠، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب...، م. س، ص١٢٣-ص١٢٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٧، مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، م. س، ص٧٢، عبد الغني زهرة: تاريخ الفتح الإسلامي...، م. س، ص١٠٥.

٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٢٧٠، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب...، م. س، الصفحات، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٧، مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، م. س، ص٧٢، عبد الغني زهرة: تاريخ الفتح الإسلامي...، م. س، ص١٠٥.

٣) ابن عذاري: البيان المغرب...، م. س، ج١، ص٨١.

٤) نفسه: ج١، ص٨٧.

بل إن الكثير منهم طاب لهم المقام، وبقوا فيها لمئات السنين، يشهد على ذلك وجود بعض منهم في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بدولة الأدارسة، وقد اعتلى أحد أفرادها، يدعى ثعلبة بن محارب بن عبدالله الأزدي العتكي المهلبي منصب الولاية على عدوة الأندلس في عهد علي بن عمر بن إدريس (٢٦١هـ/ ٨٧٤م - ٢٧٠هـ/٨٨٣م)، ثم عزل، وعين بدلاً عنه ابنه عبد الله، ثم محارب بن عبد الله بن ثعلبة (ت: ٢٩٢هـ/٩٠٤م)[١].

وفي السياق نفسه استوطن هانئ بن محمد بن سعدون الأزدي العتكي المهلبي مدينة المهدية قبل انتقاله إلى مدينة قرطبة، وهو والد الشاعر المشهور أبي القاسم محمد بن هانئ، وقد ولد الشاعر أبو القاسم بالأندلس وبها تلقى تعليمه، إلا أنه عاد وسكن المغرب فيما بعد وتوفي فيها عام (٣٦٢هـ/ ٨٧٢م)[٢].

ومما سبق يتبين الدور الاجتماعي والحضاري الذي قام به المهالبة في بلاد المغرب، وحرصهم على مصلحة البلاد وسكانها، الأمر الذي أتاح لهم محبة السكان والولاء لهم، فتمكن الناس من الحياة بسعادة وأمن وأمان.

ومن أبرز نتائج الآثار الحضارية التي تركها المهالبة في بلاد المغرب، بروز مدينة القيروان على الساحتين السياسية والعلمية، فأصبحت تنافس مدن المشرق في ذلك، كالبصرة والكوفة وبغداد، نتيجة الأمن والاستقرار والرخاء الذي ساد هذه المدينة إبّان حكم ولاة المهالبة لها، واهتمامهم بالجوانب العلمية والحضارية فيها.

كذلك من نتائج الهجرة المهلبية المحافظة على بعض المعالم الدينية التاريخية في بلاد المغرب، وتجلى ذلك في ترميم المهالبة لجامع القيروان وتوسيعه[٣]، فكان هذا العمل أحد الأسباب التي جعلت هذا الجامع شامخًا إلى عصرنا الحاضر.

---

١) السلاوي: الاستقصا...، م. س، ج١، ص٢٣٦.

٢) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبدالسلام الهراس، دار الفكر، بيروت، لبنان، سنة: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٤، ص١٤٧.

٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، م. س، ج٢، ص٢٧٠، الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، الصفحات، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م. س، ج٥، ص١٩٧، مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، م. س، ص٧٢، عبد الغني زهرة: تاريخ الفتح الإسلامي ... م. س، ص١٠٥.

ونظرًا لحسن تعامل المهالبة مع سكان بلاد المغرب، فقد نتج عنه تغيّر نظرة البربر نحو بعض ولاة بني العباس الظالمين قبل مقدم المهالبة، وتمكنوا من تحسين صورة الخلافة ببغداد في أذهان البربر ولو فترة وجيزة (١٥١هـ/٧٦٨م-١٧٨هـ/٧٩٤م) من عمر الخلافة العباسية التي استمرت أكثر من خمسة قرون (١٣٢هـ/ ٧٤٩م- ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، كذلك يمكن القول إن للمهالبة دوراً على مستوى المجتمع الإسلامي الكبير، فقد استطاعوا تأخير انقسام مجتمع بلاد المغرب إلى دويلات.

الخاتمة:

إن الدور الحضاري الذي قام به المهالبة في بلاد المغرب يستدعي دراسته دراسة معمقة؛ لفتح الباب أمام الباحثين لاستنطاق الروايات والنصوص الواردة في شتى الكتب الفقهية والتاريخية للوصول إلى تلك الجوانب التي كانت همزة الوصل بين القطرين العماني والمغربي؛ لتعزيز هذا الأمر في قلوب هذا الجيل والأجيال القادمة.

وإن تتابع هؤلاء الولاة على بلاد المغرب الواحد تلو الآخر، يعد دليلاً على المقدرة الإدارية والحس السياسي لديهم، الذي جعل من خلفاء الدولة العباسية ينيطون بهم الولاية. كما يتضح بصورة جلية الأعمال الجليلة التي قام بها المهالبة في بلاد المغرب، التي تشهد على الحس الحضاري الذي يمتلكونه أينما حل مقامهم. وقد استثمر المهالبة ما هو موجود في المجتمع من أجل النهوض ببلاد المغرب في شتى مجالات الحياة، فلم يشتغلوا، حال بعض الولاة الآخرين، بإدارة الدولة على حساب نهضة المجتمع وتحضره، بل أبدعوا ونقلوا ما عهدوه في بلاد المشرق؛ فنشأ تمازج بين الحضارة المشرقية والحضارة المغربية.

وفي الختام؛ يدعو الباحث سكان البلدان المغربية وسكان عُمان، أن يجعلوا من هذه الفترة الذهبية نقطة انطلاق لتعميق العلاقة؛ لتكون مرتعًا خصبًا لأقلام الباحثين للتنقيب في صفحات التاريخ، والبحث في قوة هذه العلاقة بين عمان وبلاد المغرب.

المصادر والمراجع:

١. ابن الأبار، أبو عبدالله، محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبدالسلام الهراس، درا الفكر، بيروت، لبنان، سنة: ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢. ابن الأثير، أبو الحسن، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، سنة: ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٣. ابن الجوزي: أخبار الظراف والمتماجنين، تحقيق: بسام عبدالوهاب الجاني، دار ابن الحزم، بيروت، لبنان، سنة: ١٩٩٧م.

٤. ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر: نسب معد واليمن الكبير، تحقيق: محمود فردوس العظم، دار اليقظة العربية، دمشق، د.ت.

٥. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، بدون طبعة، د.ت.

٦. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: صدقي جمال العطار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٧. ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد العظم: جمهرة أنساب العرب، راجع النسخة وضبطها: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٤، سنة: ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

٨. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٠٠م.

٩. ابن عبد الحكم، أبو القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، طبعة مدينة ليدن، سنة: ١٩٢٠م.

١٠. الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، تحقيق: يوسف البقاعي وغريد الشيخ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، سنة: ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

١١. البطّاشي، سيف بن حمود: تاريخ المهلب القائد وآل المهلب، إصدارات مكتبة السيد محمد بن أحمد، السيب، سلطنة عُمان، د.ت.

١٢. الثعالبي، عبد العزيز: تاريخ شمال أفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تحقيق: أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، بيروت، ط١، لبنان، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١٣. حركات، إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الإسلام إلى العصر الحاضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المملكة المغربية، د.ت.

١٤. حسونة، محمد: أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، الفجالة، القاهرة، دار نهضة مصر، د.ت.

١٥. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، ط١، سنة: ١٩٨٠م.

١٦. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، سنة: ١٩٩٦م.

١٧. حوالة، يوسف: الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، ٩٠/٤٥٠هـ)، ط١، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، سنة: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٨. الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم: تاريخ إفريقية والمغرب: تحقيق: عبد الله العلي الزيدان، وعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، سنة: ١٩٩٠م.

١٩. الزاوي، الطاهر: تاريخ الفتح العربي، دار الفتح و دار التراث العربي، ليبيا، ط٣، د.ت.

٢٠. زهرة، عبدالغني: تاريخ الفتح الإسلامي والدول الإسلامية في بلاد المغرب، مكتبة الراشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، سنة: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
٢١. السالمي، نور الدين، عبد الله بن حميد: تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، مكتبة الاستقامة، مسقط، سنة: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٢٢. السلاوي، شهاب الدين، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصر ومحمد الناصر، دار الكتاب.
٢٣. سلطان، عبد المنعم: آل المهلب العُمانيون في المشرق حتى سقوط الدولة الأموية، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، سنة ٢٠٠٥م.
٢٤. الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد،: تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٢٥. العوتبي، أبو المنذر سلمة بن مسلم: الأنساب، تحقيق: محمد إحسان النص، وزارة التراث والثقافة، مسقط، سلطنة عُمان، ط٤، سنة: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
٢٦. العيدروس، محمد: المغرب العربي في العصر الإسلامي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، ط١، سنة: ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
٢٧. المراكشي، ابن عذاري: البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س. كولان و إ . ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٣، سنة: ١٩٨٣م.
٢٨. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر: تاريخ اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، سنة: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.